إمبراطورية القطن
تاريخ عالمي

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

إمبراطورية القطن
تاريخ عالمي

سفِن بِكَرت

ترجمة
مصطفى قاسم

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

بِكَرت، سفِن

إمبراطورية القطن: تاريخ عالمي/ سفِن بِكَرت؛ ترجمة مصطفى قاسم.

816 صفحة: إيضاحيات؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 709-792) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-721-4

1. المنسوجات القطنية - صناعة. 2. القطن - زراعة وجمع. 3. القطن - صناعة وتجارة. 4. تجارة الرقيق. أ. قاسم، مصطفى (مترجم). ب. العنوان. ج. السلسلة.

338.4767721

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Empire of Cotton: A Global History

by Sven Beckert

Copyright © 2014 by Sven Beckert

عن دار النشر

THE KNOPF DOUBLEDAY GROUP, a division of Penguin Random House, LLC
This edition published by arrangement with Alfred A. Knopf, an imprint of The Knopf Doubleday Group, a division of Penguin Random House, LLC.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الأول/ ديسمبر 2025

إلى ليزا

المحتويات

ملاحظات حول ترجمة الكتاب 9

مدخل 13

الفصل الأول: صعود سلعة عالمية 33

الفصل الثاني: بناء الرأسمالية الحربية 73

الفصل الثالث: عوائد الرأسمالية الحربية 115

الفصل الرابع: غصب العمالة وانتزاع الأراضي 153

الفصل الخامس: العبودية تتصدر المشهد 177

الفصل السادس: الرأسمالية الصناعية تحلق 235

الفصل السابع: حشد العمالة الصناعية 293

الفصل الثامن: القطن يصبح عالميًا 329

الفصل التاسع: أصداء الحرب تتردد عبر أنحاء العالم 391

الفصل العاشر: إعادة بناء عالمية 447

الفصل الحادي عشر: الدمار يضرب هنا وهناك 505

الفصل الثاني عشر: إمبريالية القطن الجديدة 545

الفصل الثالث عشر: عودة الجنوب العالمي 609
الفصل الرابع عشر: اللُّحمة والسداة: خاتمة 681
شكر وعرفان 703
المراجع 709
فهرس عام 793

ملاحظات حول ترجمة الكتاب

اعتمدت ترجمة المصطلحات في هذا الكتاب على استخلاص معانيها من سياقاتها في النص نفسه. ومن ذلك على سبيل المثال أن الكتاب لا يستخدم مصطلح Nationalism ومشتقاته بمعنى القومية أو النزعة القومية، بل بالمعنى الذي نقصده في خطابنا العربي بمصطلح "الحركة الوطنية"، وتحديدًا الحركة الوطنية التي طالبت برحيل الاستعمار والاستقلال الوطني وبناء الدولة الوطنية، وهي حركة لم تقم على مزاعم قومية أو للانفصال عن قوميات أخرى أو التمايز منها. لذلك تُرجم هذا المصطلح إلى "الحركة الوطنية"، كما في مصطلح "الحركة الوطنية المرتبطة بالقطن" (Cotton Nationalism). وللوفاء بمطلب توحيد ترجمة المصطلح الأجنبي الواحد إلى المصطلح العربي نفسه، استوجب ذلك ترجمة مصطلح Nation-State إلى "الدولة الوطنية"، لا "الدولة القومية" (الدولة-الأمة)، وهو ما جاء متوافقًا مع المقصود بالمفهوم في الكتاب، وهو الدولة بعد أن أنجزت التمكين السياسي وتغلغلت في إقليمها إداريًا وبيروقراطيًا وسياسيًا وعسكريًا وقانونيًا واقتصاديًا وبالبنية التحتية، وهي حال أنجزتها، مثلًا، دولة محمد علي في مصر مبكرًا، مع أنها لم ترفع شعارات قومية، ومع أن نخبتها السياسية لم تكن مصرية الجذور.

كذلك يستخدم المؤلف مصطلحَي Nationalists وNational لوصف الحركة الوطنية وأفرادها وأفعالها في الهند ومصر والمكسيك وغيرها، وهي دول لم تشهد حركات قومية على النحو الذي حدث في أوروبا مثل الدول القومية في ألمانيا وإيطاليا وغيرهما، بل شهدت ما نسميه "الحركة الوطنية" المطالِبة بالاستقلال والنهضة في ظل "دولة وطنية"، يُسمّى العاملون من أجلها "الوطنيين"، لا "القوميين". لكن ثمة حالة وحيدة في الكتاب اضطر فيها المترجم إلى استخدام مصطلح "قومي"، وذلك

في العبارة "القومية الأولية" ترجمةً للعبارة Proto-Nationalization، وذلك لأنها تطبيق للفكرة القومية.

ومما يرتبط بالمصطلح الأجنبي عينه، يستخدم المؤلف مصطلح Nationalization للإشارة إلى رأس المال والعمل بالمعنى الذي يذكره في أكثر من موضع، وهو Its Attachment to Particular Nation-States (أي ارتباطه بدولة وطنية بعينها) وIts Growing Attachment to and Dependence on Nation-States (أي ارتباطه المتنامي بالدولة الوطنية واعتماده عليها)، وهي عملية قامت بها الدولة غالبًا، وقام بها الرأسماليون مع الدولة في حالة رأس المال، والعمال مع الدولة في حالة العمل. لذلك تُرجم هذا المصطلح إلى "الاستدماج الوطني"، بمعنى الدمج والاندماج في الدولة الوطنية. ومما يرجح استخدام الكلمة "وطني" لا "قومي" عند الحديث عن الدول القومية الأوروبية، أن المؤلف يستخدم هذا المصطلح مرادفًا لمصطلح آخر هو Territorialization، بمعنى الدمج والاندماج في الإقليم الوطني أو إقليم الدولة الوطنية. لكن ثمة حالات استُخدم فيها مصطلح Nationalization ومشتقاته في الكتاب بالمعنى الشائع، وهو "التأميم"، بمعنى انتزاع ممتلكات الأفراد وتحويلها إلى ملكية عامة.

ولتيسير الصياغة والمقروئية، استُخدمت صيغة النسب إلى أسماء الأعلام الأجنبية، مثل "ليدزي" نسبة إلى مدينة ليدز، و"ستكبورتي" نسبة إلى مدينة ستكبورت، و"إنكي" نسبة إلى شعب وإمبراطورية الإنكا، و"أزتكي" نسبة إلى شعب وإمبراطورية الأزتك، و"مایاوي" نسبة إلى شعب المايا، و"بانيّ" نسبة إلى طائفة البانيا التجارية الهندية، و"بومبائي" نسبة إلى مدينة بومباي، و"ناتشيزي" نسبة إلى مدينة ناتشيز، و"بوسطني" نسبة إلى مدينة بوسطن، و"مانشستري" نسبة إلى مانشستر، و"نيويوركي" نسبة إلى مدينة نيويورك، وهكذا.

كما أن عدم استخدام صيغة النسب مع الشعوب الأصلية، وما يُسمّى الشعوب البدائية، والاستعاضة عنها باستخدام الاسم مجردًا مسبوقًا بالكلمة "شعب"، كما في العبارة "شعب النافاجو" أو "شعب السمينول" أو "شعب الكريك"، يعد انتقاصًا من إنسانية هذه الشعوب وتقليلًا من شأنها، والنظر إليها على أنها حالة عابرة في تاريخ البشرية، حتى إن كان الكثير منها قد أُفنِيَ فعلًا. لذلك استُخدمت صيغة النسب مع

أسماء هذه الشعوب، مثل "النافاجويين" و"السمينوليين" و"الكريكيين"؛ ما يضعهم على قدم المساواة، إنسانيًا ولغويًا، على الأقل، مع مستعمريهم ومبيديهم الإنكليز والفرنسيين والإسبان والبرتغاليين وغيرهم.

وفيما يتعلق بأسماء الأعلام من الأشخاص المذكورين في الكتاب المقدس، فإن القاعدة تقتضي تعريبها صوتيًا كما تُنطق في هذه اللغة أو تلك، وليس ردها إلى أصلها العربي. ولذلك يُعَرّب الاسم Salomon صوتيًا من اللغة الألمانية إلى "زالومون" (وليس سليمان)، والاسم Elias من اللغة الإنكليزية إلى "ألايس" (وليس إلياس)؛ لأن رد التنويعات المختلفة للاسم الواحد في لغات أجنبية مختلفة إلى الاسم العربي نفسه يحدث بلبلة ويبدّد قيمة الاسم عَلَمًا لصاحبه، علاوة على أنه من غير المستساغ أن يكون اسم شخص أميركي هو "نوح" وليس نوا (Noah).

وقبل أن أترك القارئ مع الكتاب، أتوجه بالشكر الجزيل إلى المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بدولة قطر على تبنّيه نشر ترجمة هذا الكتاب، الذي أتمنى أن يكون زادًا للمهتمين بأحوال دولهم والعالم، والمهتمين بفهم كيف تشكّل العالم الذي نعيش فيه ببنيته وتكتلاته وانقساماته السياسية والاقتصادية، والمنشغلين بالتفاوت الكبير في الثراء والرفاه والقوة بين دول العالم، ومنشأ هذا التفاوت ومصدره، ومن ثَمَّ الآليات اللازمة للحاق بالمجتمعات التي أنجزت الثراء والقوة، وقبل كل شيء للمشتغلين بالتخصصات التي يخاطبها الكتاب، وهي تاريخ القطن، وتاريخ الرأسمالية، وتاريخ التحول الصناعي، والتاريخ الاقتصادي العالمي، والتاريخ عمومًا.

مدخل

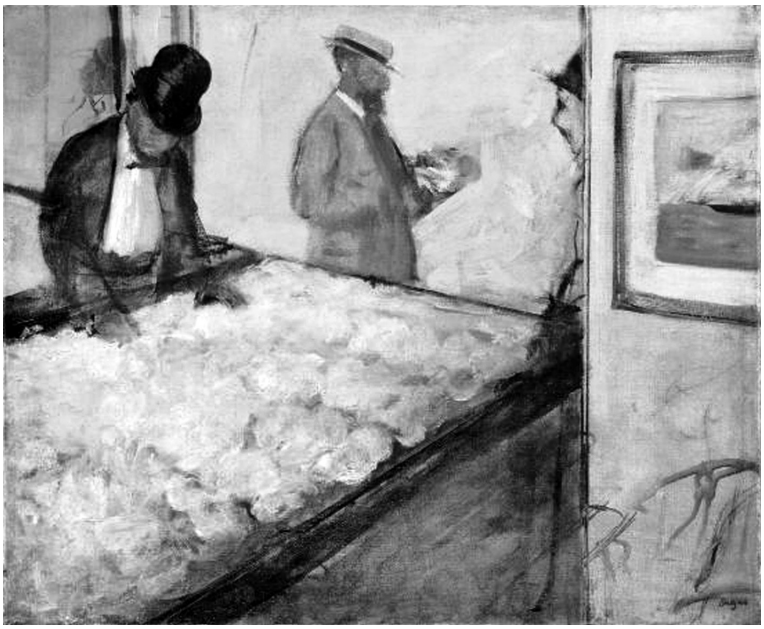

إدغار ديغا (Edgar Degas) **يعاين إمبراطورية القطن: التجار في ميناء نيو أورلينز** (New Orleans)**، عام** 1873.

Harvard Art Museum.

عقد أعضاء غرفة مانشستر للتجارة (Manchester Chamber of Commerce) اجتماعهم السنوي في دار البلدية في أواخر كانون الثاني/ يناير 1860. كان أبرز الحضور بين الثمانية وستين رجلًا الذين اجتمعوا في ذلك اليوم في قلب المدينة الصناعية الأولى في العالم، رجال صناعة المنسوجات القطنية وتجارها الذين نجحوا خلال الثمانين عامًا السابقة في تحويل الأرياف المحيطة بالمدينة إلى محور لشيء لا سابق له، هو شبكة عالمية للزراعة والتجارة والإنتاج الصناعي. فكان التجار يشترون القطن

الخام من مختلف أرجاء العالم، ويأتون به إلى المصانع البريطانية التي ضمت ثلثي مغازل القطن في العالم، وفيها، كان جيش من العمال يغزلون ذلك القطن خيوطًا، ثم ينسجون تلك الخيوط أقمشةً تامة الصنع، وأخيرًا، يصدّر موزعون تلك الأقمشة إلى الأسواق العالمية.

كان المجتمعون في حالة مزاجية احتفالية، بعد أن ذكّرهم الرئيس إدموند بوتر (Edmund Potter) بـ"النمو المذهل" لصناعتهم و"الازدهار العام للبلد كله، لا سيما تلك المقاطعة". غطت مناقشات الحضور كل شيء على وجه التقريب، من أحوال مانشستر وبريطانيا العظمى وأوروبا والولايات المتحدة، إلى الصين والهند وأميركا الجنوبية وأفريقيا. وأضاف رجل صناعة المنسوجات القطنية هنري أشويرث (Henry Ashworth) عبارات تفخيمية تحتفي بـ"مستوى الازدهار غير المسبوق على الأرجح في أي وقت سابق"[1].

كان لدى هؤلاء المنتشين من رجال صناعة المنسوجات القطنية وتجارها سبب للتفاخر؛ فهم العقل المدبر لإمبراطورية عالمية، هي إمبراطورية القطن؛ إذ كانوا يتحكمون في مصانع فيها عشرات الآلاف من العمال الذين يشغلون آلات غزلٍ ضخمة وأنوالًا آلية عالية الضجيج، وكانوا يأتون بالقطن من المزارع الاستعمارية في الأميركتين[2]، ويبيعون نتاج مصانعهم إلى أسواق في أبعد أركان العالم. ناقش الحضور شؤون العالم بغطرسة عجيبة لا تنبئ عن أعمالهم المبتذلة المتمثلة في صنع الغزول والأقمشة القطنية وبيعها. فهؤلاء لم يكونوا سوى رجال يمتلكون مصانع عالية الضجيج وقذرة ومزدحمة وبدائية، ويعيشون في مدن سوّدها السخام الناتج من محركات بخارية مشغّلة بالفحم، ويتنفسون رائحة عرق الرجال وفضلاتهم. صحيح أن هؤلاء الرجال كانوا يديرون إمبراطورية، لكنهم في حقيقة الأمر لم يكونوا مثل الأباطرة في شيء.

---

(1) *The Thirty-Ninth Annual Report of the Board of Directors of the Manchester Chamber of Commerce for the Year 1859* (Manchester: Cave & Sever, 1860), pp. 18-19, 22-23, 33-34, 38-39, 45.

(2) شكلت المزارع الاستعمارية (Plantations)، أو مزارع العبيد الاستعمارية (Slave Plantations)، جانبًا مهمًا من تاريخ جنوب الولايات المتحدة والأميركتين عمومًا قبل تحرير العبيد، قامت على استغلال أعداد كبيرة من الأفارقة المستعبدين في زراعة عدد قليل من المحاصيل النقدية، مثل القطن وقصب السكر والتبغ والبن، في مزارع ضخمة، للسوق العالمي. (المترجم)

إن أسلاف رجال المنسوجات القطنية هؤلاء قبل 100 عام فقط كانوا سيسخرون من فكرة إمبراطورية القطن؛ لأن القطن في زمن هؤلاء الأسلاف كان يُزرَع بكميات صغيرة ويعالج داخل البيوت، ولم يكن لصناعة المنسوجات القطنية (Cotton Industry) في المملكة المتحدة سوى دور قليل في أحسن الأحوال. عرف بعض الأوروبيين أقمشة الموصلين (Muslin) والشيت (Chintz) والكاليكو (Calico) الهندية البديعة التي سماها الفرنسيون "الأنديان" (Indiennes: أي الهندية)، التي كانت تصل إلى موانئ لندن وبرشلونة ولوهافر (Le Havre) وهامبورغ وترييستي (Trieste). ومع أن النساء والرجال في الأرياف الأوروبية كانوا يغزلون القطن وينسجونه، فإنهم كانوا منافسين صغارًا للمنسوجات الفاخرة القادمة من الشرق. في حين كان الناس في الأميركتين وأفريقيا، ولا سيما في آسيا، يبذرون القطن بين اليام[3] والذرة والجاور، ويغزلون أليافه وينسجونها أقمشةً لسد احتياجات منازلهم ومطالب حكامهم. فعلى مدى قرون، وربما آلاف السنين، ظل الناس في مدن دكا وكانو وتينوشتيتلان من بين أماكن أخرى كثيرة، يصنعون المنسوجات القطنية ويصبغونها بألوان بديعة، كان بعضها يباع على مستوى العالم، وكان من بينها ما جعلت نعومته المذهلة المعاصرين يسمونه "الريح المنسوجة" (Woven Wind).

وبدلًا من النساء الجالسات على مقاعد منخفضة، وهن يغزلن على دواليب خشبية صغيرة داخل أكواخهن، أو يستخدمن فلكاتوطاسات غزل أمام هذه الأكواخ[4]، أصبحت ملايين المغازل الآلية المشغّلة بمحركات بخارية وبسواعد عمال أجراء (Wage Workers)، كثيرون منهم أطفال، تعمل عام 1860 حتى 14 ساعة يوميًا، وتنتج ملايين الأرطال من الغزول. وبدلًا من قيام أفراد المنزل بزراعة القطن وتحويله إلى خيوط مغزولة وأقمشة منسوجة يدويًّا في البيت، أصبح ملايين العبيد يعملون في المزارع الاستعمارية في الأميركتين، على مسافة آلاف الأميال من المصانع المتعطشة إلى محصولها، التي كانت تبعد آلاف الأميال عن المستهلكين للمنسوجات. وعوضًا عن قوافل الإبل التي كانت تنقل منسوجات غرب أفريقيا عبر الصحراء الكبرى، أخذت البواخر تمخر محيطات العالم محملة بقطن من

(3) اليام (Yam) نبات استوائي تحتوي درناته على كمية كبيرة من النشاء والماء وبعض السكر، يزرع للأكل في الكثير من مناطق العالم. (المترجم)

(4) الفلكات (مفردها فلكة) أداة للتعامل مع القطن غير المغزول. (المترجم)

جنوب الولايات المتحدة أو بمنسوجات قطنية بريطانية الصنع. لكن هذا المجمع العالمي المدمج لتصنيع المنسوجات القطنية (Cotton Manufacturing)[5]، الأول من نوعه على مدى التاريخ، كان عاديًّا ومن طبائع الأشياء في نظر رأسماليي القطن (Cotton Capitalists) المجتمعين عام 1860 للاحتفال بإنجازاتهم، مع أن العالم الذي ساعدوا في إيجاده كان ما يزال جديدًا.

وإلى جانب نسيان الماضي غير البعيد، كان التجار ورجال الصناعة المجتمعون في مانشستر عام 1860 في غفلة عن المستقبل. ولا ريب في أنهم كانوا سيسخرون لو وُصف لهم مدى التغير الجذري الذي سيلحق بعالم المنسوجات القطنية خلال القرن التالي، الذي سيأتي فيه معظم القطن الخام ومعظم الغزول والأقمشة القطنية بحلول عام 1960 من آسيا والصين والاتحاد السوفياتي والهند، تمامًا كما كانت على مر التاريخ، ولن يبقى فيه لبريطانيا وبقية أوروبا ونيو إنغلاند[6] غير القليل من مصانع المنسوجات القطنية، وستغدو فيه مراكز تصنيع المنسوجات القطنية السابقة، من بينها مدن مانشستر وميلوز (Mulhouse) وبارمن (Barmen) ولويل (Lowell)، مشهدًا لمصانع مهجورة مبعثرة وعمال عاطلين يتسكعون، حتى إن رابطة ليفربول للقطن (Liverpool Cotton Association) التي كانت في السابق إحدى أهم المنظمات التجارية في مجال المنسوجات القطنية، باعت أثاثها في مزاد علني عام 1963[7]؛

(5) على خلاف مصطلح Industry الذي يشير إلى الصناعة الحديثة التي بدأت مع الثورة الصناعية إبان العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، يشير مصطلح Manufacturing إلى التصنيع بوصفه عملية وإلى هذا النشاط قبل الثورة الصناعية وبعدها، ولذلك خصَّ المترجم المصطلح الأخير ومشتقاته بالكلمة "تصنيع" ومشتقاتها، حتى إن كانت تُستخدم في سياق ما بعد الثورة الصناعية، كما في هذا السياق الذي يشير إلى تصنيع المنسوجات القطنية عام 1860. فعندما يقول المؤلف مثلًا "بدايات تصنيع المنسوجات القطنية"، فإنه يشير إلى بدايات هذه الصناعة من قبل الثورة الصناعية. يُستثنَى من ذلك مصطلح Manufacturer الذي يُترجم إلى "رجل الصناعة" خلال فترة الثورة الصناعية وما بعدها، وإلى "صانع" و"صُنّاع" خلال فترة ما قبلها. وكذلك يُستخدَم المصطلح الثاني بمعنى "تحويلي" في العبارة "الصناعة التحويلية" (Manufacturing Industry). (المترجم)

(6) أطلق الاسمُ نيو إنغلاند (New England: إنكلترا الجديدة) على المستعمرات البريطانية الأولى في أميركا الشمالية التي صارت لاحقًا جزءًا من المستعمرات الثلاث عشرة، وتشكّل حاليًا خمس ولايات في أقصى شمال شرق الولايات المتحدة الأميركية. (المترجم)

(7) "Liverpool. By Order of the Liverpool Cotton Association Ltd., Catalogue of the Valuable Club Furnishings Etc. to be Sold by Auction by Marsh Lyons & Co., Tuesday, 17th December 1963," *Greater Manchester County Record Office*, Manchester, UK.

إذ كان الدمار يضرب أركان إمبراطورية القطن، أو على الأقل شقها الخاضع لسيطرة أوروبا.

يقدم هذا الكتاب قصة صعود إمبراطورية القطن الخاضعة لسيطرة الأوروبيين وانهيارها، وهي في الوقت عينه -بسبب مركزية القطن- قصة بناء الرأسمالية العالمية وإعادة بنائها، ومعها العالم الحديث برمته. يبرز النطاق العالمي للتحليل كيف تمكّنت حفنة من رياديي الأعمال ورجال الدولة الأقوياء في أوروبا خلال فترة قصيرة من إعادة تشكيل أهم صناعة تحويلية في العالم، من خلال الجمع بين التوسع الإمبراطوري وعمل العبيد (Slave Labor) من جانب، والآلات الجديدة والعمال الأجراء من جانب آخر. فقد أطلق التنظيم الدقيق الذي وضعوه للتجارة والإنتاج والاستهلاك توسعًا كاسحًا في عوالم القطن المختلفة الموجودة منذ آلاف السنين. بعث هؤلاء الرأسماليون في القطن حياة جديدة، ومنحوه طاقة من النوع الذي يغير العالم، ثم استخدموه رافعةً لتغيير العالم جذريًّا. فمن خلال استغلال هِبة طبيعية تتمثل في نبات قديم، واستغلال المهارات والأسواق الضخمة لصناعة قديمة في آسيا وأفريقيا والأميركتين، شيّد رياديو أعمال ورجال دولة أوروبيون إمبراطورية القطن الهائلة النطاق والطاقة. ومن سخرية القدر أن نجاحهم المذهل كان هو نفسه ما أيقظ القوى التي نجحت -في النهاية- في تهميشهم ضمن الإمبراطورية التي أوجدوها.

على طول الطريق، أفنى ملايين الناس حياتهم في العمل في حقول القطن التي أخذت تنتشر تدريجيًا عبر أنحاء العالم كافة، في حصد[8] مليارات اللوزات من شجيرات القطن العنيدة، وحمل بالات القطن من العربات إلى السفن، ومن السفن إلى القطارات، والكدّ -غالبًا منذ الطفولة- في تلك "المصانع الشيطانية"، من نيو إنغلاند إلى الصين. خاضت الدول حروبًا للوصول إلى تلك الحقول الخصبة، ووضعَ أصحاب المزارع الاستعمارية أعدادًا هائلة من البشر في أغلال العبودية، واختصر أرباب العمل طفولة عمالهم، وأدى إدخال الآلات الجديدة إلى إخلاء مراكز

(8) بحسب الاشتقاق اللغوي، تشير الكلمة "حصد" إلى عملية جني القطن، في حين تشير الكلمة "حصاد" إلى غَلّة القطن، أو ناتجه، أو كمية الإنتاج. (المترجم)

صناعية قديمة من سكانها، وناضل العمال -العبيد والأحرار على حد سواء- من أجل الحرية والأجور الكافية. أما الرجال والنساء الذين ظلوا على مدى القرون يعيلون أنفسهم وعائلاتهم بزراعة القطن في حقول صغيرة جنبًا إلى جنب مع طعامهم، فقد شهدوا بأعينهم نهاية طريقة حياتهم، وتركوا أدواتهم الزراعية وراء ظهورهم، وانتقلوا للعمل في المصانع. وثمة آخرون كثيرون، في مناطق أخرى من العالم، ممن كانوا يعملون على أنوالهم ويلبسون من نسج أيديهم، وجدوا منتجاتهم وقد اجتثها إنتاج الآلات الكاسح في حجمه وسرعته، فتركوا دواليبهم وأنوالهم، وانتقلوا إلى العمل في الحقول، لكن بعد أن باتوا مكبَّلين في حلقة مفرغة من الضغوط والديون. كانت إمبراطورية القطن منذ البداية موقعًا لصراع عالمي دائم بين العبيد وأصحاب المزارع الاستعمارية، وبين التجار ورجال الدولة، وبين المزارعين والتجار، وبين أصحاب المصانع والعمال. وكانت إمبراطورية القطن، بهذه الأفعال وغيرها الكثير، فاتحة العالم الحديث.

يوجد القطن حاليًا في كل شيء، إلى حدٍّ يجعل الناس يغفلون عن كونه أحد أكبر إنجازات البشرية. فلا بد من أنك وأنت تقرأ هذه الجملة ترتدي شيئًا منسوجًا من القطن، وأنك لم تجنِ لوزة قطن واحدة من غصنها، أو تشاهد حفنة منفوشة من ألياف القطن الخام، أو تسمع ضجيجًا يصم الآذان لمغزل أو نول آليين. فالقطن مألوف ومجهول بالقدر نفسه، فلا نشعر بحضوره الدائم، مع أننا نلبسه على جلدنا مباشرة، وننام تحته، ونقمّط به أطفالنا، ويوجد في الأوراق النقدية التي نتداولها، وفي الأكواب الورقية التي نشرب فيها القهوة التي تساعدنا على الاستيقاظ صباحًا، وفي الزيت النباتي الذي نستخدمه في الطبخ، وفي الصابون الذي نغتسل به، وفي البارود الذي نخوض به حروبنا (نال ألفريد نوبل (Alfred Nobel) عام 1887 براءة اختراع بريطانية عن اختراعه للباليستايت (Ballistite)، وهي مادة متفجرة جديدة جمعت بين النتروغليسرين و"القطن المتفجر")[9]، بل إن القطن أحد مكونات الكتاب الذي تحمله الآن بين يديك.

(9) القطن المتفجر (Guncotton)، أو ورق الفلاش أو نترات السيليلوز أو النتروسليلوز (Nitrocellulose)، وهي مادة متفجرة تدخل في تركيب الكورديت والديناميت، تُنتَج بغمس القطن في خليط من حمضي الكبريتيك والنتريك المركزين. (المترجم)

كان القطن على مدى نحو 900 سنة (من عام 1000 إلى عام 1900) الصناعة التحويلية الأهم على مستوى العالم. ومع أنه تخلى حاليًا عن صدارته لمصلحة صناعات أخرى، فإنه لا يزال مُهمًّا في التوظيف وفي التجارة العالمية. يوجد القطن في كل مكان، حتى إن العالم أنتج عام 2013 ما لا يقل عن 123 مليون بالة من القطن الخام، تزن الواحدة منها نحو 400 رطل، وهي كمية تكفي لإنتاج 20 قميصًا لكل شخص في العالم. لو سُتِّفت هذه البالات الواحدة فوق الأخرى، لصنعت برجًا بارتفاع 40,000 ميل، ولو وضعت الواحدة بجانب الأخرى، لأحاطت الكرة الأرضية مرة ونصف. وتنتشر حاليًا مزارع قطن ضخمة عبر الكرة الأرضية، من الصين إلى الهند والولايات المتحدة، ومن غرب أفريقيا إلى آسيا الوسطى. ولا تزال الألياف الخام التي تنتجها هذه المزارع وتُكبَس بإحكام في بالات، تُشحن حول العالم، إلى مصانع توظف مئات الآلاف من العمال، ثم تباع الأقمشة التامة الصنع بعد ذلك في كل مكان، من متاجر القرى النائية إلى مجمعات ولمارت (Walmart). بل إن المنسوجات القطنية قد تكون إحدى السلع المصنّعة القليلة جدًّا التي تتوفر في كل مكان؛ ما يشهد على فائدة القطن وعلى الزيادات المهولة التي دفعتها الرأسمالية في معدل الإنتاج والاستهلاك البشريين. فـ"القطن هو نسيج حياتنا"، كما جاء مؤخرًا على نحو دقيق في حملة إعلانية في الولايات المتحدة[10].

تخيّل -للحظة- إن استطعت- عالمًا بلا قطن. ها أنت تستيقظ في الصباح على سرير مغطى بالفراء أو القش، وترتدي أقمشة صوفية أو -بحسب المناخ ومدى ثرائك- أقمشة كتانية أو حريرية. ولمّا كانت هذه الملابس غير القطنية صعبة الغسل وغالية، أو تحتاج إلى عمل كثيف (labor intensive)، إن كنت تصنعها بنفسك[11]، فإنك لا تغيرها إلا قليلًا. كما أنها ذات رائحة، وخشنة، ولونها واحد إلى حد كبير؛ لأن الصوف وغيره من الألياف الطبيعية -على خلاف القطن- لا تحتفظ جيدًا بالألوان. وها أنت تعيش وسط الأغنام؛ إذ يتطلب إنتاج كمية من

(10) "Monthly Economic Letter: U.S. and Global Market Fundamentals," *Cotton Incorporated*, accessed on 23/1/2013, at: https://Acr.Ps/1l9zp8w; "The Fabric of our Lives," accessed on 1/7/2012, at: https://Acr.Ps/1l9zofn

(11) في الاقتصاد، توصف الصناعة أو السلعة أو الخدمة بمدى كثافة مكون العمل (Labor Intensive) أو الأرض أو رأس المال (Capital Intensive) المطلوب لإنتاجها أو تقديمها، والسلعة الكثيفة العمل هي السلعة التي تتطلب قدرًا كبيرًا من العمل لإنتاجها، سواء في عدد ساعات العمل أو عدد العمال المطلوبين لإنتاجها أو تقديمها. والوصف نفسه ينطبق على كثافة الأرض وكثافة رأس المال. (المترجم)

الصوف تكافئ إنتاج العالم حاليًا من محصول القطن، زهاء 7 مليار رأس من الأغنام، تحتاج إلى 700 مليون هكتار من الأرض للرعي، أي نحو 1.6 مساحة الاتحاد الأوروبي حاليًا[12].

إنه عالم يصعب تخيله حقًا. لكن في رقعة من الأرض تقع في أقصى الحافة الغربية لكتلة اليابسة الأوراسية، كان هذا العالم الذي يغيب عنه القطن هو القاعدة لزمن طويل، وهذه الرقعة هي أوروبا التي ظل استخدام القطن فيها حتى القرن التاسع عشر قليلًا في إنتاج المنسوجات واستهلاكها، وإن كان معروفًا لهم.

لماذا كان ذلك الجزء من العالم الأقل احتكاكًا بالقطن -أوروبا- هو نفسه الذي أوجد إمبراطورية القطن وسيطر عليها؟ ما كان لأي مراقب حصيف عام 1700 -على سبيل المثال- إلا أن يتوقع أن يظل الإنتاج العالمي للمنسوجات القطنية متمركزًا في الهند، أو ربما في الصين. فقد كان هذان البلدان حتى عام 1780 ينتجان من القطن الخام والمنسوجات القطنية أكثر مما كانت تنتجه أوروبا وأميركا الشمالية. لكن الحال تغيرت؛ إذ انتقل الرأسماليون الأوروبيون والدول الأوروبية بسرعة مذهلة إلى مركز صناعة المنسوجات القطنية، واستخدموا مكانتهم الجديدة لإطلاق ثورة صناعية. وأصبحت الصين والهند، مع الكثير من مناطق العالم الأخرى، أجزاء تابعة ضمن إمبراطورية القطن المتمركزة حول أوروبا. ثم استخدم الأوروبيون صناعة المنسوجات القطنية الحيوية لديهم منصةً لإنشاء صناعات أخرى، بل إن القطن كان منصة إطلاق الثورة الصناعية برمتها.

---

(12) يبلغ متوسط وزن صوف الشاة الواحدة في الولايات المتحدة 7.3 رطل، يراجع:
"Fast Facts... about American Wool," American Sheep Industry Association, accessed on 10/3/2013, at: https://Acr.Ps/1l9zp82;

وقد قُسِم الوزن الإجمالي لمحصول القطن العالمي على هذا الرقم لإيجاد عدد الأغنام اللازم لإنتاج الوزن نفسه من الصوف؛ يراجع:
Government of South Australia, "Grazing Livestock-a Sustainable and Productive Approach," *Adelaide & Mt Lofty Ranges Natural Resource Management Board*, accessed on 10/3/2013, at: https://Acr.Ps/1l9zolq;
"European Union," CIA-the World Factbook, accessed on 16/3/2013, at: https://Acr.Ps/1l9zomp;

ويُفترَض -بحسب المصدر الأول- أن الهكتار الواحد من الأرض يمكن أن يُطعم 10 أغنام متوسطة، إذا أُتيح للرعي 12 شهرًا في السنة. وقد استُخدم هذا التقدير لحساب مساحة الأرض اللازمة لإطعام 7 مليار رأس من الأغنام، ثم قورنت بمساحة الاتحاد الأوروبي البالغة 4,324,782 كيلومترًا مربعًا، يراجع:
CIA-the World Factbook.